

سيعطيك الله فوق ما تستطيع أن تحتل

ميتش تشيز



يُدلي المؤمنون بأغرب التصريحات على الإطلاق حين يعزّون المتألمين. ماذا يمكن أن تقول لشخص تنهار حياته؟ إن لم تكن لديك سوى دقائق قليلة ثمينة مع شخص فقد وظيفة، أو منزلاً، أو شريك حياة، أو ابناً، أو الهدف من الحياة، فما التعزية التي يمكن أن تقدّمها له؟

ربما نلجأ في هذه الحالة إلى الحكمة الطبيعية وليس إلى الكتاب المقدس، فينتهي بنا الحال بقول شيء من قبيل: "لا تقلق، لم يكن هذا ليحدث في حياتك لو لم ير الله أنك تستطيع أن تحتمله". قد يعترض المتألم، ويهز رأسه ويرفع يديه، لكنك تصر قائلاً: "حقاً، يعد الكتاب المقدس بأنه لن يعطيك الله البتة فوق ما تستطيع تحتل". هذه حكمة طبيعية متخفية في هيئة حق كتابي. فقد وعدت بما لا يعد به الكتاب المقدس على الإطلاق.

التجارب في مقابل الضيقات:

في الأصحاح العاشر من رسالة كورنثوس الأولى، كتب الرسول بولس: "لَمْ تُصِيبْكُمْ تَجْرِبَةٌ إِلَّا بَشْرِيَّةً. وَلَكِنَّ اللَّهَ أَمِينٌ، الَّذِي لَا يَدَعُكُمْ تُجْرَبُونَ فَوْقَ مَا تَسْتَطِيعُونَ، بَلْ سَيَجْعَلُ مَعَ التَّجْرِبَةِ أَيْضًا الْمُنْقَذَ، لِتَسْتَطِيعُوا أَنْ تَحْتَمِلُوا". كان كلام بولس محدداً، فقد كان يتحدث عن "التجربة" (temptation)، أي الفخ الذي يصارع ويجتهد محاولاً جرفنا إلى الخطية. فقد حذر الله قايين من الخطية، مستخدماً صورة بلاغية لحيوان مفترس، قائلاً: "عِنْدَ الْبَابِ خَطِيئَةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ أَشْتَبِيأُهَا وَأَنْتَ تَسْوَدُ عَلَيْهَا" (تكوين ٤: ٧). إن الخطية تلاحقنا، لكن الله أمين. تشتهي الخطية أن تهزمننا، لكن هناك مَنْقَذٌ. فإن الخطية تنصب الفخ، لكن بالنسبة للمؤمن، نشكر الله، الخطية ليست بالأمر الذي لا يُقاوم.

لكن إن قام البعض بتطبيق كلمات بولس عن التجربة على الآلام العامة، حينئذٍ سندرك المصدر الذي تأتي منه جملة "لن يعطيك الله البتة فوق ما تستطيع أن تحتمل". لستُ أشكُّكَ في إخلاص أو حسن نية مَنْ يستخدمون هذه العبارة، لكن الإخلاص غير كافٍ. فحتى أصدقاء أيوب كانوا حسني النية.

خطآن مزدوجان:

هناك خطآن على الأقل يكمنان في الفكرة غير الكتابية بأنه "لن يعطيك الله البتة فوق ما تستطيع أن تحتمل". أولاً، تلعب هذه الفكرة على منظور المجتمع بشأن الإنصاف والعدل. ثانيًا، توجّه المتألم إلى داخله، وليس إلى الله.

١ - الضيقات ... هل هي منصفة؟

إن أعطيت أبناءك بعض الصناديق كي يحملوها إلى السيارة، فإنك حتمًا ستقدّر بصريًا وبحسب الوزن ما يناسب أعمارهم وقدراتهم. فإنك لن تحمّلهم ثقلاً زائدًا عن الحد، ثم تراقبهم وهم يسقطون أرضًا والأشياء تتناثر في كلِّ مكان. لن يكون هذا منصفًا لهم. فإن مقولة: "لن يعطيك الله البتة فوق ما تستطيع أن تحتمل" تلعب على وتر الإنصاف الذي ينال إعجابنا غريزيًا. فهناك ما يرضينا في فكرة توازن القياسات، وفي تقييم الله لما نستطيع أن نحتمل، وسماحه بالضيقات بموجب هذا.

لكن هناك مشكلة واضحة جدًا في هذا "الإنصاف" تحيط بهذه الحكمة الطبيعية: كان الله بالفعل غير منصف، لأنه لم يتعامل معنا بحسب ما تستحقه خطايانا. فقد كان طويل الأناة، و متمهلاً، ومتراثفاً، وكثير المحبة. فإن الشمس تشرق والأمطار تسقط حتى على الظالمين (متى ٥: ٤٥). يسمو الله إذن فوق تعريفات الإنصاف والظلم للدرجة التي بها نصير في وضع لا يسمح لنا بتقييم أفعاله أو فحص مشيئته. فإن طريقه ليست خاضعة لمقياس مجتمعا عن الإنصاف.

٢ - القوة ... في الداخل؟

لا يسألك الألم هل أنت مستعدٌّ أم لا. ربما يأتي ببطء أو في عنف وشدة، لكنه لا يطلب الإذن، ولا يكثرث بالوقت المناسب. لا يوجد وقت مناسب كي تتحطّم فيه حياتك. لكن تُخبرني مقولة "لن يعطيك الله البتة فوق ما تستطيع أن تحتمل" بأن لدي أنا ما يستلزمه الأمر، وبأنني قادر على تحمّل كل ما يقف في طريقي، وبأن الله يسمح بالضيقات فقط بحسب قدرتي أنا على الاحتمال. فكّر فيما تتسبب فيه هذه الحكمة الطبيعية: إنها توجه البشر إلى داخلهم.

إلا أن الكتاب المقدس يوجهنا نحو الله. كما يقول كاتب المزمور: "اللَّهُ لَنَا مَلْجَأٌ وَقُوَّةٌ. عَوْنًا فِي الضَّيِّقَاتِ وَجِدًّا شَدِيدًا. لِذَلِكَ لَا نَخْشَى وَلَوْ تَرَحَّزَتِ الْأَرْضُ، وَلَوْ أُنْقَلَبَتِ الْجِبَالُ إِلَى قَلْبِ الْبِحَارِ. تَعِجُّ وَتَجِيشُ مِيَاهُهَا. تَتَرَعَّرُ الْجِبَالُ بِطُموها" (مزمور ٤٦: ١-٣). حين تخور قوانا تحت أثقال ساحقة، لا يكمن الحل في داخلنا. بل يعطي الله المعيني قدرة، ولعديم القوة يكثر شدة (إشعيا ٤٠: ٢٩). فإن القوة تأتي منه إلى منتظريه.

إلى أين توجهنا الضيقات؟

تأتي الضيقات في كل صورة وحجم، لكنها لا تأتي لكي تظهر لنا المقدار الذي يمكننا تحمله، أو كيف يمكننا التحكم في الوضع جيدًا. فإن الآلام الغامرة تعترض طريقنا لأننا نعيش في عالم محطّم مع بشر محطمين. وحين يأتي الألم، ليتنا نكون واضحين تمامًا مع أنفسنا مقدمًا؛ فإننا لا نملك ما يستلزمه الأمر. سيعطينا الله فوق ما نستطيع أن نحتمل — لكن ليس فوق ما يستطيع هو.

سأل كاتب المزمور: "مِنْ حَيْثُ يَأْتِي عَوْنِي! [من أين يأتي عوني؟]" (مزمور ١٢١: ١)، ولا بد أن نتمكن من الإجابة كما أجب هو. علينا أن نعلم ونؤمن، في أعماق أعماقنا، بأن "مَعُونَتِي مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ، صَانِعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" (١٢١: ٢). حين تأتي الضيقات، ثق أن معونة الرب ستأتي. هذا الخبر نافع للمتألمين، بما أننا نقول شيئًا صحيحًا عن الله، وليس شيئًا زائفًا عن أنفسنا.

تحدّث بولس عن وقتٍ فيه أعطاه الله فوق ما يستطيع أن يحتمل. ففي رسالته إلى أهل كورنثوس، كتب: "فَإِنَّا لَا نَرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ ضَيْقَاتِنَا الَّتِي أَصَابَتْنَا فِي أَسِيَا، أَنَّنَا تَتَّقَلْنَا جِدًّا فَوْقَ الطَّاقَةِ، حَتَّى أَيْسَنَا مِنَ الْحَيَاةِ أَيْضًا" (٢ كورنثوس ١: ٨). فقد اجتاز بولس ورفقاؤه في ظروف فاقت قدرتهم على التحمل: "لَكِنْ كَانَ لَنَا فِي أَنْفُسِنَا حُكْمُ الْمَوْتِ" (١: ٩).

ثم يقدم لنا بولس فهمًا محوريًا عن يأسه هذا. لماذا نتقل هو ورفقاؤه فوق طاقة احتمالهم؟ "لِكَيْ لَا نَكُونَ مُتَكَلِّبِينَ عَلَى أَنْفُسِنَا بَلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي يُقِيمُ الْأَمْوَاتِ" (٢ كورنثوس ١: ٩). سيعطيك الله فوق ما تستطيع أن تحتمل حتى تستعلن شدة قوته في حياتك. وفي الحقيقة، إن ثقل مجد أعظم عتيّد أن يأتي: "لِأَنَّ خِفَّةَ ضَيْقَاتِنَا الْوَقْتِيَّةِ تُنْشِئُ لَنَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ثِقَلًا مَجْدٍ أَبَدِيًّا" (٢ كورنثوس ٤: ١٧).

ربما لا تعتبر اليوم الآلام الغامرة "خفيفة" و"وقتيّة"، لكن فكّر في ضيفاتك من جهة مليارات الأعوام من الآن. ففي وسط المحنة، أحيانًا ما يكون أصعب شيء تتعلق به هو رؤية أبدية. لا يحاول بولس التقليل من حجم محنتك، بل يحاول التوسيع من نظرتك للأمور.

فإن الألم لا يكتب كلمة النهاية في السيناريو. ففي هذه الحياة، سيعطيك الله فوق ما تستطيع أن تحتمل، لكن ثقل المجد الآتي سيفوق تصوُّرك.